

الباب الأول
في فضل العقلِ
وذمِّ الهوى



أجاب

الدنيا والدين

في فضل العقل وذم الهوى



[العقل أس الفاضل] (١)

اغْلَمَ أَنْ لِكُلِّ فَضِيلَةٍ أَسًا (٢) وَلِكُلِّ آدَبٍ نَبُوْعًا، وَأَسُّ الْفَضَائِلِ وَنَبُوْعُ (٣) الْأَدَابِ هُوَ الْعَقْلُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلدِّينِ أَصْلًا وَلِلدُّنْيَا عِمَادًا، فَأَوْجَبَ الدِّينَ بِكَمَالِهِ وَجَعَلَ الدُّنْيَا مُدَبَّرَةً بِأَحْكَامِهِ، وَأَلْفَ بِهِ بَيِّنَ خَلْفِهِ مَعَ اخْتِلَافِ هِمَمِهِمْ وَمَأْرِبِهِمْ (٤)، وَتَبَيَّنَ أَعْرَاضِهِمْ وَمَقَاصِدِهِمْ، وَجَعَلَ مَا تَعَبَّدَهُمْ (٥) بِهِ قِسْمَيْنِ: قِسْمًا وَجَبَ بِالْعَقْلِ فَوَكَّدَهُ الشَّرْعُ، وَقِسْمًا جَازَ فِي الْعَقْلِ فَأَوْجَبَهُ الشَّرْعُ فَكَانَ الْعَقْلُ لُهُمَا عِمَادًا.

رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا اكْتَسَبَ الْمَرْءُ مِثْلَ عَقْلٍ يَهْدِي صَاحِبَهُ إِلَى هُدًى، أَوْ يَزِدُّهُ عَنِ رَدًى» (٦)، وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لِكُلِّ شَيْءٍ عَمَلٌ دِعَامَةٌ وَدِعَامَةُ عَمَلِ الْمَرْءِ عَقْلُهُ» (٧) فَيَقْدِرُ عَقْلُهُ تَكُونَ عِبَادَتُهُ لِرَبِّهِ أَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ الْفَجَّارِ ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]. وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ؓ: أَصْلُ الرَّجُلِ عَقْلُهُ، وَحَسْبُهُ دِينُهُ، وَمُرُوَّتُهُ خُلْفُهُ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: مَا اسْتَوْدَعَ اللَّهُ أَحَدًا عَقْلًا إِلَّا اسْتَنْفَذَهُ بِهِ يَوْمًا مَا (٨). وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الْعَقْلُ أَفْضَلُ مَرْجُوٍّ، وَالْجَهْلُ أَنْكَى (٩) عَدُوٌّ. وَقَالَ بَعْضُ الْأَدْبَاءِ: صَدِيقُ كُلِّ امْرِئٍ عَقْلُهُ وَعَدُوُّهُ جَهْلُهُ. وَقَالَ بَعْضُ الْبُلْغَاءِ: خَيْرُ الْمَوَاهِبِ الْعَقْلُ، وَشَرُّ الْمَصَائِبِ الْجَهْلُ.

وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ، وَهُوَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ حَسَّانَ:

(١) العنوان من وضع الأستاذ السقا في طبعته ص ٤٣.

(٢) الأس: الأساس، وهو الأصل الذي يقوم عليه، ومنه أساس البيت.

(٣) أصل النبويع: العين المتفجرة بالماء. (٤) المأرب: الحاجات مفردها مأربة.

(٥) ما تعبدتهم: ما كلفهم به من الفرائض والنوافل.

(٦) عزاه السيوطي في الجامع الصغير إلى الطبراني في الأوسط، والبيهقي في جامع شعب الإيمان، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير رقم ٥٠٠٩، ٥٠١٠.

(٧) انظر مسند الحارث بن أبي أسامة ٨٤٩، والإسناد تالف، وانظر تخريج العراقي على الإحياء ٧٥٥/١.

(٨) استفذته: نجاةً وخلصه مما يقع فيه. (٩) أنكى: من النكابة وهي الضرر الشديد.

يَرِينُ الْفَتَى فِي النَّاسِ صِحَّةَ عَقْلِهِ وَإِنْ كَانَ مَحْظُورًا عَلَيْهِ مَكَابِهُ
يَشِينُ الْفَتَى فِي النَّاسِ قِلَّةَ عَقْلِهِ وَإِنْ كَرِمَتْ أَعْرَاقُهُ وَمَنَاسِبُهُ^(١)
يَعِيشُ الْفَتَى بِالْعَقْلِ فِي النَّاسِ إِنَّهُ عَلَى الْعَقْلِ بَعْجَرِي عِلْمُهُ وَتَجَارِبُهُ
وَأَفْضَلُ قَسَمِ اللَّهِ لِلْمَرْءِ عَقْلُهُ فَلَيْسَ مِنْ الْأَشْيَاءِ شَيْءٌ يُقَارِبُهُ
إِذَا أَحْمَلَ الرَّحْمَنُ لِلْمَرْءِ عَقْلَهُ فَقَدْ كَمَلَتْ أَخْلَاقُهُ وَمَارِبُهُ
وَاعْلَمْ أَنَّ بِالْعَقْلِ تُعْرَفُ حَقَائِقُ الْأُمُورِ وَيُفْصَلُ بَيْنَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ.

وَقَدْ يَنْقَسِمُ قَسَمَيْنِ: عَرِيزِيٍّ وَمُكْتَسِبِيٍّ^(٢).

فَالْعَرِيزِيُّ هُوَ الْعَقْلُ الْحَقِيقِيُّ. وَلَهُ حَدٌّ يَتَعَلَّقُ بِهِ التَّكْلِيفُ لَا يُجَاوِزُهُ إِلَى زِيَادَةٍ وَلَا يَنْقُصُهُ عَنْهُ إِلَى نَقْصَانٍ. وَبِهِ يَمْتَازُ الْإِنْسَانُ عَنِ سَائِرِ الْحَيَوَانَ، فَإِذَا تَمَّ فِي الْإِنْسَانِ سُمِّيَ عَاقِلًا وَخَرَجَ بِهِ إِلَى حَدِّ الْكَمَالِ كَمَا قَالَ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الْقُدُوسِ^(٣).

إِذَا تَمَّ عَقْلُ الْمَرْءِ تَمَّتْ أُمُورُهُ وَتَمَّتْ أَمَانِيهِ وَتَمَّ بِنَاؤُهُ^(٤)

وَرَوَى الصَّحَّاحُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠]، أَيُّ مَنْ كَانَ عَاقِلًا وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ وَفِي صِفَتِهِ عَلَى مَذَاهِبَ شَتَّى. فَقَالَ قَوْمٌ: هُوَ جَوْهَرٌ لَطِيفٌ^(٥) يُفْصَلُ بِهِ بَيْنَ حَقَائِقِ الْمَعْلُومَاتِ. وَمَنْ قَالَ بِهَذَا الْقَوْلِ اخْتَلَفُوا فِي مَحَلِّهِ. فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَحَلُّهُ الدَّمَاعُ؛ لِأَنَّ الدَّمَاعَ مَحَلُّ الْحِسِّ. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى مِنْهُمْ مَحَلُّهُ الْقَلْبُ؛ لِأَنَّ الْقَلْبَ مَعْدِنُ الْحَيَاةِ وَمَادَّةُ الْحَوَاسِّ. وَهَذَا الْقَوْلُ فِي الْعَقْلِ بِأَنَّهُ جَوْهَرٌ لَطِيفٌ فَاسِدٌ مِنْ وَجْهَيْنِ:

* أَحَدِهِمَا: إِنَّ الْجَوْهَرَ مُتَمَاثِلَةٌ فَلَا يَصِحُّ أَنْ يُوجِبَ بَعْضُهَا مَا لَا يُوجِبُ سَائِرُهَا. وَلَوْ أَوْجَبَ سَائِرُهَا مَا يُوجِبُ بَعْضُهَا لَأَسْتَعْنَى الْعَاقِلُ بِوُجُودِ نَفْسِهِ عَنِ وُجُودِ عَقْلِهِ.

* وَالثَّانِي: أَنَّ الْجَوْهَرَ يَصِحُّ قِيَامُهُ بِذَاتِهِ. فَلَوْ كَانَ الْعَقْلُ جَوْهَرًا لَجَازَ أَنْ يَكُونَ عَقْلٌ بَعِيرٍ عَاقِلٍ كَمَا

(١) المراد بقلة العقل وصحته في البيتين، صواب الرأي أو فساده والمناسب: الأنساب.

(٢) العقل الغريزي: ما كان عن طريق الوراثة، وهو ما يكون في الجملة أما العقل المكتسب، فهو ما يأتي عن طريق تجارب الحياة والثقافة.

(٣) صالح بن عبد القدوس، شاعر حكيم، اتهم بالزندقة، وقتله الخليفة المهدي ببغداد بسبب هذه التهمة انظر معجم الأدباء ٤/ ١٤٤٥.

(٤) انظر روضة العقلاء لأبي حاتم البستي ص ١١ حيث نسبها إلى عبد العزيز بن سليمان الأبرش.

(٥) هو الذي أصله روحاني لا يرى بالأبصار.

جَازَ أَنْ يَكُونَ جِسْمٌ بَعِيرٌ عَقْلٌ فَاثْتَنَعَ بِهِذَيْنِ أَنْ يَكُونَ الْعَقْلُ جَوْهَرًا. وَقَالَ آخَرُونَ: الْعَقْلُ هُوَ الْمُدْرِكُ لِلْأَشْيَاءِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ حَقَائِقِ الْمَعْنَى. وَهَذَا الْقَوْلُ وَإِنْ كَانَ أَقْرَبَ مِمَّا قَبْلَهُ فَبَعِيدٌ مِنَ الصَّوَابِ مِنْ وَجْهِ وَاحِدٍ وَهُوَ أَنَّ الْإِذْرَاكَ مِنْ صِفَاتِ الْحَيِّ، وَالْعَقْلُ عَرَضٌ يَسْتَحِيلُ ذَلِكَ مِنْهُ كَمَا يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ مُتَلَدِّذَا أَوْ أَلْمَا أَوْ مُشْتَهِيًا.

وَقَالَ آخَرُونَ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ: الْعَقْلُ هُوَ جُمْلَةٌ عُلُومٍ ضَرُورِيَّةٌ وَهَذَا الْحَدُّ غَيْرُ مَحْضُورٍ لِمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الْإِجْمَالِ، وَيَتَأَوَّلُهُ مِنَ الْإِحْتِمَالِ، وَالْحَدُّ إِنَّمَا هُوَ بَيَانُ الْمَحْدُودِ بِمَا يَنْفِي عَنْهُ الْإِجْمَالُ وَالْإِحْتِمَالُ. وَقَالَ آخَرُونَ، وَهُوَ الْقَوْلُ الصَّحِيحُ: إِنَّ الْعَقْلَ هُوَ الْعِلْمُ بِالْمُدْرَكَاتِ الضَّرُورِيَّةِ. وَذَلِكَ نَوْعَانِ:

* أَحَدُهُمَا: مَا وَقَعَ عَنْ دَرَكِ الْحَوَاسِّ.

* وَالثَّانِي: مَا كَانَ مُبْتَدَأًا فِي النَّفْسِ.

فَأَمَّا مَا كَانَ واقِعًا عَنْ دَرَكِ الْحَوَاسِّ فَمِثْلُ الْمَرْتَبَاتِ الْمُدْرَكَةِ بِالنَّظَرِ، وَالْأَصْوَاتِ الْمُدْرَكَةِ بِالسَّمْعِ، وَالطُّعُومِ الْمُدْرَكَةِ بِالذَّوْقِ، وَالرَّوَائِحِ الْمُدْرَكَةِ بِالسَّمِّ، وَالْأَجْسَامِ الْمُدْرَكَةِ بِاللَّمْسِ، فَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ مِمَّنْ لَوْ أَدْرَكَ بِحَوَاسِهِ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ ثَبَتَ لَهُ هَذَا النَّوعُ مِنَ الْعِلْمِ؛ لِأَنَّ خُرُوجَهُ فِي حَالِ تَغْمِيسِ عَيْنَيْهِ مِنْ أَنْ يُدْرِكَ بِهِمَا وَيَعْلَمَ لَا يُخْرِجُهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ كَامِلَ الْعَقْلِ مِنْ حَيْثُ عِلْمٌ مِنْ حَالِهِ أَنَّهُ لَوْ أَدْرَكَ لَعَلِمَ. وَأَمَّا مَا كَانَ مُبْتَدَأًا فِي النَّفْسِ فَكَالْعِلْمِ بِأَنَّ الشَّيْءَ لَا يَخْلُو مِنْ وُجُودٍ أَوْ عَدَمٍ، وَأَنَّ الْمَوْجُودَ لَا يَخْلُو مِنْ حُدُوثٍ أَوْ قِدَمٍ، وَأَنَّ مِنَ الْمَحَالِ اجْتِمَاعَ الصِّدِّيقِينَ، وَأَنَّ الْوَاحِدَ أَقَلُّ مِنَ الْاِثْنَيْنِ. وَهَذَا النَّوعُ مِنَ الْعِلْمِ لَا يَجُوزُ أَنْ يَنْتَفِي عَنِ الْعَاقِلِ مَعَ سَلَامَةِ حَالِهِ، وَكَمَالِ عَقْلِهِ، فَإِذَا صَارَ عَالِمًا بِالْمُدْرَكَاتِ الضَّرُورِيَّةِ مِنْ هَذَيْنِ النَّوعَيْنِ فَهُوَ كَامِلُ الْعَقْلِ وَسُمِّيَ بِذَلِكَ تَشْبِيهًا بِعَقْلِ النَّاقَةِ؛ لِأَنَّ الْعَقْلَ يَمْتَنِعُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْأَفْدَامِ عَلَى شَهَوَاتِهِ إِذَا قَبِحَتْ، كَمَا يَمْتَنِعُ الْعَقْلُ النَّاقَةَ مِنَ الشُّرُودِ إِذَا نَفَرَتْ. وَلِلذَلِكَ قَالَ عَامِرُ بْنُ قَيْسٍ (١): إِذَا عَقَلْتَ عَقْلُكَ عَمَّا لَا يَنْبَغِي فَأَنْتَ عَاقِلٌ. وَقَدْ جَاءَتْ الشُّنَّةُ بِمَا يُؤَيِّدُ هَذَا الْقَوْلَ فِي الْعَقْلِ، وَهُوَ مَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْعَقْلُ نُورٌ فِي الْقَلْبِ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ» (٢). وَكُلُّ مَنْ نَفَى أَنْ يَكُونَ الْعَقْلُ جَوْهَرًا اثْبَتَ مَحَلَّهُ فِي الْقَلْبِ؛ لِأَنَّ الْقَلْبَ مَحَلُّ الْعُلُومِ كُلِّهَا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [الحج: ٤٦]. فَذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَمْرَيْنِ:

(١) هو عامر بن عبد الله المعروف بابن عبد قيس أحد الثقات ومن كبار أئمة التابعين، انظر سير أعلام النبلاء ٤ / ١٥.

(٢) ليس من أقوال النبي ﷺ ونسبته إلى غير صحيحة، وقد ذكر في روضة العقلاء لأبي حاتم البستي منسوبة لبعض الحكماء.

* أَحَدِهِمَا: أَنَّ الْعَقْلَ عِلْمٌ.

* وَالثَّانِي: أَنَّ مَحَلَّهُ الْقَلْبُ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ ، تَأْوِيلَانِ: أَحَدُهُمَا: يَتَعَلَّمُونَ بِهَا، وَالثَّانِي: يَغْتَبِرُونَ بِهَا. فَهَذِهِ جُمْلَةُ الْقَوْلِ فِي الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ. وَأَمَّا الْعَقْلُ الْمُكْتَسَبُ فَهُوَ نَتِيجَةُ الْعَقْلِ الْعَرَبِيِّ وَهُوَ نَهَايَةُ الْمَعْرِفَةِ، وَصِحَّةُ السِّيَاسَةِ، وَإِصَابَةُ الْفِكْرَةِ. وَلَيْسَ لِهَذَا حَدٌّ؛ لِأَنَّهُ يَنْمُو إِنْ أُسْتَعْمِلَ وَيَنْقُصُ إِنْ أَهْمِلَ.

وَنَمَاؤُهُ يَكُونُ بِأَحَدٍ وَجْهَيْنِ: إِمَّا بِكَثْرَةِ الاسْتِعْمَالِ إِذَا لَمْ يُعَارِضْهُ مَانِعٌ مِنْ هَوَى وَلَا صَادٌّ مِنْ شَهْوَةٍ، كَالَّذِي يَحْصُلُ لِذَوِي الْأَسْنَانِ^(١) مِنَ الْحُنْكَةِ وَصِحَّةِ الرَّوِيَّةِ بِكَثْرَةِ التَّجَارِبِ وَمُمَارَسَةِ الْأُمُورِ.

وَلِذَلِكَ حَمِدَتْ الْعَرَبُ آرَاءَ الشُّيُوخِ^(٢) حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ: الْمَشَايِخُ أَشْجَارُ الْوَقَارِ، وَمَنَاجِعُ الْأَخْبَارِ، لَا يَطْبِيشُ لَهُمْ سَهْمٌ^(٣)، وَلَا يَسْقُطُ لَهُمْ وَهْمٌ، إِنْ رَأَوْكَ فِي قَبِيحِ صَدُوكَ، وَإِنْ أَبْصَرُوكَ عَلَى جَمِيلِ أَمْدُوكَ. وَقِيلَ: عَلَيْكُمْ بِآرَاءِ الشُّيُوخِ فَإِنَّهُمْ إِنْ فَقَدُوا ذِكَاءَ الطَّبِيعِ فَقَدْ مَرَّتْ عَلَى عُيُونِهِمْ وَجُوهُ الْعَيْبِ، وَصَدَّتْ لِأَسْمَاعِهِمْ أَنَارُ الْغَيْبِ^(٤). وَقِيلَ فِي مَنْتُورِ الْحَكَمِ: مَنْ طَالَ عُمُرُهُ نَقَصَتْ قُوَّةُ بَدَنِهِ وَزَادَتْ قُوَّةُ عَقْلِهِ. وَقِيلَ فِيهِ: لَا تَدْعُ الْأَيَّامُ جَاهِلًا إِلَّا أَدْبَتْهُ.

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: كَفَى بِالتَّجَارِبِ تَأْدِيبًا وَبِالتَّقَلُّبِ الْأَيَّامِ عِظَةً.

وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: التَّجْرِبَةُ مِرَاةُ الْعَقْلِ، وَالغِرَّةُ^(٥) ثَمَرَةُ الْجَهْلِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْأَدْبَاءِ: كَفَى مُخْبِرًا عَمَّا بَقِيَ مَا مَضَى وَكَفَى عِبْرًا لِأُولِي الْأَبَابِ مَا جَرَّبُوا. وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْعَقْلَ زَيْنٌ لِأَهْلِهِ وَلَكِنْ تَمَامُ الْعَقْلِ طُولُ التَّجَارِبِ^(٦)

وَقَالَ آخَرُ:

إِذَا طَالَ عُمُرُ الْمَرْءِ فِي غَيْرِ آفَةٍ أَنَادَتْ لَهُ الْأَيَّامُ فِي كَرِّهَا عَقْلًا

وَأَمَّا الْوَجْهُ الثَّانِي فَقَدْ يَكُونُ بِفَرْطِ الذِّكَاةِ وَحُسْنِ الْفِطْنَةِ. وَذَلِكَ جُودَةُ الْحَدْسِ فِي زَمَانٍ غَيْرِ

(١) المراد بذوي الأسنان كبار السن والذين بلغوا من العمر أركله.

(٢) المراد بالشيوخ: الكبار، ويطلق لفظ الشيخ على من بلغ رتبة أهل العلم ولو صغيراً، لأنه خبر الأمور بالعلم والمعرفة.

(٣) طاش السهم: حاد عن الهدف ولم يصبه.

(٤) الغيرة: من التغيير، وهي الأحداث المغيرة لأحوال الناس.

(٥) الغرّة: الغفلة، يقال: أخذه على غرّة، والمراد به هنا الانخداع بالأمانى الباطلة.

(٦) نسبة أبو حاتم البستي في روضة العقلاء ص ٣٣ للمتصّر بن بلال الأنصاري.

مُهْمِلٌ لِلْحَدْسِ^(١)، فَإِذَا امْتَرَجَ بِالْعَقْلِ الْغَرِيزِيِّ صَارَتْ نَتِيجَتُهُمَا نُمُو الْعَقْلِ الْمُكْتَسَبِ كَالَّذِي يَكُونُ فِي الْأَحْدَاثِ مِنْ وَفُورِ الْعَقْلِ وَجُودَةِ الرَّأْيِ، حَتَّى قَالَ هَرِمٌ بِنُ قُطَيْبَةَ^(٢) حِينَ تَنَافَرَ إِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ وَعَلْقَمَةُ بْنُ عُلَاثَةَ^(٣)، عَلَيْنَكُم بِالْحَدِيثِ السَّنِّ، الْحَدِيدِ الدَّهْنِ. وَلَعَلَّ هَرِمًا أَرَادَ أَنْ يَدْفَعَهُمَا عَنْ نَفْسِهِ فَأَعْتَدَرَ بِمَا قَالَ. لَكِنْ لَمْ يُتَكْرَمَا قَوْلُهُ إِذْ عَانَا لِلْحَقِّ فَصَارَا إِلَى أَبِي جَهْلٍ لِحَدَاثَةِ سِنِّهِ، وَحِدَّةِ ذَهْنِهِ، فَأَبَى أَنْ يَحْكَمَ بَيْنَهُمَا فَرَجَعَا إِلَى هَرِمٍ فَحَكَمَ بَيْنَهُمَا. وَفِيهِ قَالَ لَيْبَدٌ:

يَا هَرِمُ ابْنَ الْأَكْرَمِينَ مُنْصَبًا إِنَّكَ قَدْ أُوْنَيْتَ حُكْمًا مُعْجَبًا

وَقَدْ قَالَتْ الْعَرَبُ: عَلَيْنَكُم بِمُساوَرَةِ السَّبَابِ فَإِنَّهُمْ يُنْتَجُونَ رَأْيًا لَمْ يَنْلُهُ طُولُ الْقَدَمِ^(٤)، وَلَا اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ رُطُوبَةُ الْهَرَمِ^(٥). وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ:

رَأَيْتَ الْعَقْلَ لَمْ يَكُنْ انْتِهَابًا وَلَمْ يُقْسَمْ عَلَى عَدَدِ السِّنِينَ

وَلَوْ أَنَّ السِّنِينَ تَقَاسَمَتْهُ حَوَى الْأَبَاءَ أَنْصَبَةَ الْبَنِينَ

وَحَكَى الْأَصْمَعِيُّ^(٦) - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَالَ: قُلْتُ لِغُلَامٍ حَدِيثٍ^(٧) مِنْ أَوْلَادِ الْعَرَبِ كَانَ يُحَادِثُنِي فَأَمْتَعَنِي بِفَصَاحَةٍ وَمَلَاحَةٍ: أَيْسُرُكَ أَنْ يَكُونَ لَكَ مِائَةٌ أَلْفٍ دِرْهَمٍ، وَأَنْتَ أَحْمَقُ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ. قَالَ: فَقُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَ: أَخَافُ أَنْ يَجِيَنِي عَلَيَّ حُمَقِي جِنَايَةً تَذْهَبُ بِمَالِي وَيَبْقَى عَلَيَّ حُمَقِي. فَاَنْظُرْ إِلَى هَذَا الصَّبِيِّ كَيْفَ اسْتَخْرَجَ بِفَرْطِ ذَكَائِهِ، وَاسْتَنْبَطَ بِجُودَةِ قَرِيبَتِهِ^(٨) مَا لَعَلَّهُ يَدِقُّ عَلَى مَنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ سِنًا، وَأَكْثَرُ تَجْرِبَةً. وَأَحْسَنُ مِنْ هَذَا الذِّكَاةِ وَالْفِطْنَةِ مَا حَكَى ابْنُ قُتَيْبَةَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه مَرَّ بِصَبِيَّانِ يَلْعَبُونَ وَفِيهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ فَهَرَّبُوا مِنْهُ إِلَّا عَبْدَ اللَّهِ.

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رضي الله عنه: مَا لَكَ؟ لِمَ لَا تَهْرُبُ مَعَ أَصْحَابِكَ؟ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِمَ أَكُنْ عَلَى رِيْبَةٍ فَأَخَافُكَ، وَلِمَ يَكُنِ الطَّرِيقُ ضَمِيْقًا فَأَوْسَعُ لَكَ.

(١) الفراسة وشدة الذكاء من معاني الحدس.

(٢) هو هرم بن قطيبة الفزاري، أحد حكماء العرب وحكامهم، أدرك الإسلام، وله صحبة.

(٣) هو عامر بن طفيل بن مالك بن الأحوص أحد سادات بني عامر بن صعصعة وكذلك علقمة بن علاثة بن جعفر من سادات بني عامر، والتنافر بينهما معناه أنهما عظيمان في قومهما، فيؤتى بمن يقضي أيهما أعز نفراً وهو نظام من أنظمة الجاهلية في القضاء.

(٤) أي رأياً جديداً، لم يعرفه القدماء من الشيوخ مع طول خبرتهم وكثرة العقلاء فيهم.

(٥) الهرم: الشيخ الكبير.

(٦) الأصمعي: هو أبو سعيد عبد الملك بن قريش، حافظ اللغة والأدب، ورواية العرب، كان تقياً صالحاً توفي سنة ١١٦هـ.

(٧) الحدّث: هو حديث السن صغيره.

(٨) القريحة: الطبعة التي جُبل الإنسان عليها.

فَانظُرْ مَا تَصَمَّمَهُ هَذَا الْجَوَابُ مِنَ الْفِطْنَةِ وَقُوَّةِ الْمِثَّةِ وَحُسْنِ الْبِدِيهَةِ. كَيْفَ نَفَى عَنْهُ اللَّوْمَ، وَأَثَبَتْ لَهُ الْحُجَّةَ فَلَيْسَ لِلدُّكَاةِ غَايَةٌ، وَلَا لِجُودَةِ الْقَرِيحَةِ نَهَايَةٌ. وَحُكِّيَ أَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ أَمَرَ الْفَرَزْدَقَ^(١) بِضَرْبِ أَعْنَاقِ أَسَارَى مِنَ الرُّومِ فَاسْتَعْمَاهُ الْفَرَزْدَقُ فَلَمْ يَفْعَلْ، وَأَعْطَاهُ سَيْفًا لَا يَقْطَعُ شَيْئًا فَقَالَ الْفَرَزْدَقُ بَلْ أَضْرِبُهُمْ بِسَيْفِ أَبِي رَعْوَانَ مُجَاشِعٍ، يَعْنِي سَيْفَ نَفْسِهِ، فَقَامَ فَضْرَبَ بِهِ عُنُقَ رُومِيٍّ مِنْهُمْ فَنَبَا السَّيْفُ عَنْهُ، فَضَحِكَ سُلَيْمَانٌ وَمَنْ حَوْلَهُ فَقَالَ الْفَرَزْدَقُ:

أَيْعَجِبُ النَّاسُ أَنْ أَضْحَكَتْ سَيِّدَهُمْ خَلِيفَةَ اللَّهِ يُسْتَنْقَى بِهِ الْمَطَرُ
لَمْ يَنْبُ سَيْفِي مِنْ رُعْبٍ وَلَا دَهْشٍ عَنْ الْأَسِيرِ وَلَكِنْ أَخْرَ الْقَدْرُ
وَلَنْ يُقَدَّمَ نَفْسًا قَبْلَ مِيتَتِهَا جَمْعُ الْبَدِينِ وَلَا الصَّمْصَامَةُ الدُّكْرُ^(٢)
ثُمَّ غَمَدَ سَيْفَهُ وَهُوَ يَقُولُ:

مَا إِنْ يُعَابُ سَيِّدٌ إِذَا صَبَا وَلَا يُعَابُ صَارِمٌ إِذَا نَبَا
وَلَا يُعَابُ شَاعِرٌ إِذَا كَبَا^(٣)

ثُمَّ جَلَسَ وَهُوَ يَقُولُ: كَأَنَّ بَابِنَ الْمَرَاغَةَ^(٤) قَدْ هَجَانِي فَقَالَ:
بِسَيْفِ أَبِي رَعْوَانَ سَيْفِ مُجَاشِعٍ ضَرَبْتُ وَلَمْ تَضْرِبْ بِسَيْفِ ابْنِ ظَالِمٍ
ثُمَّ قَامَ فَانصَرَفَ وَحَضَرَ جَرِيرٌ وَخُبِّرَ بِالْحَبْرِ وَلَمْ يُشَدِّ لَهُ الشُّعْرُ فَانْشَأَ يَقُولُ:

بِسَيْفِ أَبِي رَعْوَانَ سَيْفِ مُجَاشِعٍ ضَرَبْتُ وَلَمْ تَضْرِبْ بِسَيْفِ ابْنِ ظَالِمٍ^(٥)
ثُمَّ قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَأَنَّ بَابِنَ الْقَيْنِ^(٦) وَقَدْ أَجَابَنِي فَقَالَ:

وَلَا نَقْتُلُ الْأَنْسَرَى وَلَكِنْ نَفُكُّهُمْ إِذَا أَثْقَلَ الْأَعْنَاقَ حَمْلُ الْمَغَارِمِ

فَاسْتَحْسَنَ سُلَيْمَانٌ حَدْسَ الْفَرَزْدَقِ عَلَى جَرِيرٍ ثُمَّ الْفَرَزْدَقُ بِشِعْرِ جَرِيرٍ وَلَمْ يُخْبِرْهُ بِحَدْسِهِ فَقَالَ الْفَرَزْدَقُ:

(١) الفرزدق: هو الشاعر الكبير همام بن غالب بن صعصعة التميمي، شاعر عصر بني أمية، وكان ينافس الشاعر جرير في الهجاء، وعُرفت أهاجيهما بالنقائض، توفي سنة ١١٠ هـ.
(٢) الصمصامة: السيف الذي لا يثني، والذكر: الحديد الصلب.
(٣) يقال: كبا الرجل: انكب على وجهه وخرَّ على الأرض.
(٤) أصل المراعة أنثى الحمار، وابن المراعة: كنية كنى بها الفرزدق.
(٥) أبو روغان: كنية مجاشع جد الفرزدق، والمقصود بسيف ابن ظالم، سيف المهلب بن أبي صفرة.
(٦) المراد بالقيين: الصانغ وهو يريد به الفرزدق لأن آباءه كانوا صاغاً في البصرة.

كَذَٰكَ سُيُوفُ الْهِنْدِ تَنْبُو ظُبَانَهَا وَتَقْطَعُ أَحْبَانَا مَنَاطَ التَّمَائِمِ ^(١)
 وَلَنْ نَقْتُلَ الْأَسْرَى وَلَكِنْ نَفْكُهُمْ إِذَا أَنْقَلَ الْأَعْنَاقَ حَمْلُ الْمَعَارِمِ
 وَهَلْ ضَرْبَةُ الرُّومِيِّ جَاعِلَةٌ لَكُمْ أَبَا عَنْ كُتَيْبٍ أَوْ أَخَا مِنْلٍ دَارِمِ ^(٢)

فَسَاءَ حَدِيثُ الْفَرَزْدَقِ بِهَذَا حَتَّىٰ حُكِيَ أَنَّ الْمَهْدِيَّ أَتَىٰ بِأَسْرَىٰ مِنَ الرُّومِ فَأَمَرَ بِقَتْلِهِمْ وَكَانَ عِنْدَهُ شَيْبُ بْنُ شَيْبَةَ ^(٣) فَقَالَ لَهُ: اضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْعَلِجِ ^(٤)، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْتَ مَا أُبْتَلِي بِهِ الْفَرَزْدَقُ فَعَبَّرَ بِهِ قَوْمٌ إِلَىٰ الْيَوْمِ؛ فَقَالَ: إِنَّمَا أَرَدْتُ تَشْرِيفَكَ وَقَدْ أَغْفَيْتُكَ. وَكَانَ أَبُو الْهَوَلِ ^(٥) الشَّاعِرُ حَاضِرًا فَقَالَ:

جَزِغْتَ مِنَ الرُّومِيِّ وَهُوَ مُقْتَدٌ فَكَيْفَ وَلَوْ لَاقَبْتَهُ وَهُوَ مُطْلَقٌ
 دَعَاكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لِقَتْلِهِ فَكَأَدَ شَيْبٌ عِنْدَ ذَلِكَ يَفْرَقُ
 نَنَحَّ شَيْبِيًّا عَنْ فِرَاعِ كَتَيْبَةٍ وَادُّنْ شَيْبِيًّا مِنْ كَلَامِ يُلْمَقُ

وَلَيْسَ الْعَجَبُ مِنْ كَلَامِ الْفَرَزْدَقِ إِنْ صَحَّ مِنْ جَوْدَةِ الْفَرِيحَتَيْنِ وَلَكِنْ مِنْ اتِّفَاقِ الْخَاطِرَيْنِ. وَلِمَثَلِ ذَلِكَ قَالَتِ الْحُكَمَاةُ: أَيُّهُ الْعَقْلُ سُرْعَةُ الْفَهْمِ، وَغَايَتُهُ إِصَابَةُ الْوَهْمِ، وَلَيْسَ لِمَنْ مُنَحَّ جَوْدَةُ الْفَرِيحَةِ وَسُرْعَةُ الْخَاطِرِ عَجْزٌ عَنْ جَوَابِ وَإِنْ أُغْضِلَ، كَمَا قِيلَ لِعَلِيِّ عليه السلام: كَيْفَ يُحَاسِبُ اللَّهُ الْعِبَادَ عَلَىٰ كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ قَالَ: كَمَا يَرِزُّهُمْ عَلَىٰ كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ. وَقِيلَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ: أَيْنَ تَذْهَبُ الْأَرْوَاحُ إِذَا فَارَقَتِ الْأَجْسَادَ؟ قَالَ: أَيْنَ تَذْهَبُ نَارُ الْمَصَابِيحِ عِنْدَ فَنَاءِ الْأَدْهَانِ ^(٦)؟ وَهَذَانِ الْجَوَابَانِ جَوَابًا إِسْكَاتٍ تَضَمَّنَا دَلِيلِي إِذْ عَانَ وَحُجَّتِي قَهْرِي. وَمِنْ غَيْرِ هَذَا الْفَنِّ وَإِنْ كَانَ مُسْكَتًا مَا حُكِيَ عَنْ إِبْلِيسَ - لَعَنَهُ اللَّهُ - أَنَّهُ حِينَ ظَهَرَ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام فَقَالَ: أَلَسْتُ تَقُولُ أَنَّهُ لَنْ يُصِيبَكَ إِلَّا مَا كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَازِمَ نَفْسِكَ مِنْ ذُرْوَةِ هَذَا الْجَبَلِ فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرُ لَكَ السَّلَامَةُ تَسْلَمَ. فَقَالَ لَهُ: يَا مَلْعُونُ إِنَّ لِلَّهِ أَنْ يَخْتَبِرَ عِبَادَهُ وَلَيْسَ لِلْعَبْدِ أَنْ يَخْتَبِرَ رَبَّهُ. وَمِثْلُ هَذَا الْجَوَابِ لَا يُسْتَعْرَبُ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِينَ أَمَدَّهُمْ بِوَحْيِهِ، وَأَيْدَهُمْ بِنُصْرِهِ، وَإِنَّمَا يُسْتَعْرَبُ مِمَّنْ يَلْجَأُ إِلَىٰ خَاطِرِهِ وَيُعْوَلُ عَلَىٰ

(١) الظئبة: حد السيف الذي يقطع به، والتمايم: جمع تيمة، وهي خرزات تعلق على الصبي اتقاء العين على زعمهم.

(٢) انظر شرح ديوان الفرزدق ص ٨٥٨.

(٣) شيبب بن شيببة الأهم، من البصرة، صاحب لسان وفصاحة توفى سنة ١٦٢ هـ.

(٤) العليج: الرجل الضخم من رجال العجم.

(٥) هو عامر بن عبد الله أو عبد الرحمن الحميري، له مدائح في الرشيد وأولاده، وهو مكثر من شعر الهجاء.

(٦) الأدهان: الزيت الذي يوضح في المصباح.

بِدَيْهَتِهِ. وَرَوَى قُتَيْبُ بْنُ الْعَبَّاسِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قِيلَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ع: كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ قَالَ: دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ. قِيلَ: فَكَمْ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ؟ قَالَ: مَسِيرَةٌ يَوْمٌ لِلشَّمْسِ. فَكَانَ هَذَا السُّؤَالُ مِنْ سَائِلِهِ إِذَا اخْتَبَرًا، وَإِنَّمَا اسْتَبْصَرَا فَصَدَّرَ عَنْهُ مِنَ الْجَوَابِ مَا أَسْكَتَ. فَأَمَّا إِذَا اجْتَمَعَ هَذَانِ الْوَجْهَانِ فِي الْعَقْلِ الْمُكْتَسَبِ وَهُوَ مَا يُنَمِّيهِ فَرُطُ الذِّكَاةِ بِجَوْدَةِ الْحَدْسِ وَصِحَّةِ الْفَرِيحَةِ بِحُسْنِ الْبِدْيَةِ، مَعَ مَا يُنَمِّيهِ الاسْتِعْمَالُ بِطُولِ التَّجَارِبِ وَمُرُورِ الزَّمَانِ بِكَثْرَةِ الْاِخْتِبَارِ، فَهُوَ الْعَقْلُ الْكَامِلُ عَلَى الْإِطْلَاقِ فِي الرَّجُلِ الْفَاضِلِ الْاسْتِحْقَاقِ.

رَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ع: قَالَ: أَتَيْتُ عَلَى رَجُلٍ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ص بَخِيرٌ فَقَالَ: «كَيْفَ عَقْلُهُ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ مِنْ عِبَادَتِهِ، إِنَّ مِنْ خُلُقِهِ، إِنَّ مِنْ فَضْلِهِ، إِنَّ مِنْ أَدَبِهِ. فَقَالَ: «كَيْفَ عَقْلُهُ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَثِي عَلَيْهِ بِالْعِبَادَةِ، وَأَصْنَافِ الْخَيْرِ وَتَسَأَلْنَا عَنْ عَقْلِهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ص: «إِنَّ الْأَحْمَقَ الْعَابِدُ يُصِيبُ بِجَهْلِهِ أَعْظَمَ مِنْ فُجُورِ الْفَاجِرِ وَإِنَّمَا يَقْرُبُ النَّاسُ مِنْ رَبِّهِمْ بِالزُّلْفِ عَلَى قَدْرِ عَقُولِهِمْ» ^(١). وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الْعَقْلِ الْمُكْتَسَبِ إِذَا تَنَاهَى وَرَادَ هَلْ يَكُونُ فَضِيلَةً أَمْ لَا فَقَالَ قَوْمٌ: لَا يَكُونُ فَضِيلَةً؛ لِأَنَّ الْفَضَائِلَ هَيْئَاتٌ مُتَوَسِّطَةٌ بَيْنَ فَضِيلَتَيْنِ نَاقِصَتَيْنِ، كَمَا أَنَّ الْخَيْرَ تَوْسُطٌ بَيْنَ رَذِيلَتَيْنِ فَمَا جَاوَزَ التَّوَسُّطَ خَرَجَ عَنْ حَدِّ الْفَضِيلَةِ.

وَقَدْ قَالَتِ الْحُكَمَاءُ لِلْإِسْكَانْدَرِ: أَيُّهَا الْمَلِكُ عَلَيْكَ بِالْاِعْتِدَالِ فِي كُلِّ الْأُمُورِ، فَإِنَّ الزِّيَادَةَ عَيْبٌ وَالتَّقْصَانَ عَجْزٌ. هَذَا مَعَ مَا وَرَدَتْ بِهِ الشُّنَّةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ص أَنَّهُ قَالَ: «خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا» ^(٢). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ع: خَيْرُ الْأُمُورِ التَّمْطُ الْأَوْسَطُ، إِلَيْهِ يَرْجِعُ الْعَالِي، وَمِنْهُ يَلْحَقُ النَّالِي. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

لَا تَذْهَبَنَّ فِي الْأُمُورِ قَرَطًا لَا تَسْأَلَنَّ إِنْ سَأَلْتَ سَطَطًا
وَكُنْ مِنَ النَّاسِ جَمِيعًا وَسَطًا ^(٣)

قَالُوا: لِأَنَّ زِيَادَةَ الْعَقْلِ تُفْضِي بِصَاحِبِهَا إِلَى الدَّهَاءِ وَالْمَكْرِ وَذَلِكَ مَذْمُومٌ وَصَاحِبُهُ مَلُومٌ. وَقَدْ أَمَرَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ ع: أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ أَنْ يَغْزَلَ زِيَادًا عَنْ وَلَايَتِهِ فَقَالَ زِيَادٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَعَنْ مُوجِدَةً أَوْ خِيَانَةً؟ فَقَالَ: لَا عَنْ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا، وَلَكِنْ خِفْتُ أَنْ أَحْمِلَ عَلَى النَّاسِ فَضْلَ عَقْلِكَ ^(٤).

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ٢/٣٥٧، وعزاه العراقي في تخريجه لأحاديث الإحياء إلى داود بن المعبر في كتاب «العقل».

(٢) ذكره السيوطي في الجامع الصغير، وعزاه إلى البيهقي، وضعفه الألباني انظر ضعيف الجامع الصغير رقم ١٢٥٢.

(٣) انظر البيان والتبيين للجاحظ ١/٢٥٥، حيث ذكر الأبيات من غير نسبة.

(٤) انظر عيون الأخبار لابن قتيبة ١/٤٦٨.

وَلِأَجْلِ (١) هَذَا الْمَخِيبِيِّ عَنْ عُمَرَ مَا قِيلَ قَدِيمًا: إِفْرَاطُ الْعَقْلِ مُضِرٌّ بِالْجَسَدِ (٢).

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: كَفَاكَ مِنْ عَقْلِكَ مَا دَلَّكَ عَلَى سَبِيلِ رُشْدِكَ.

وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: قَلِيلٌ يَكْفِي خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ يُطْغِي.

وَقَالَ آخَرُونَ، وَهُوَ أَصَحُّ الْقَوْلَيْنِ: زِيَادَةُ الْعَقْلِ فَضِيلَةٌ؛ لِأَنَّ الْمُكْتَسَبَ غَيْرَ مُخْدُودٍ، وَإِنَّمَا تَكُونُ زِيَادَةُ الْفَضَائِلِ الْمُحْمُودَةِ تَقْصًا مَذْمُومًا؛ لِأَنَّ مَا جَاوَزَ الْحَدَّ لَا يُسَمَّى فَضِيلَةً كَالشَّجَاعِ إِذَا زَادَ عَلَى حَدِّ الشَّجَاعَةِ نُسِبَ إِلَى التَّهَوُّرِ (٣)، وَالسَّخِيَّ إِذَا زَادَ عَلَى حَدِّ السَّخَاءِ نُسِبَ إِلَى التَّبْذِيرِ. وَلَيْسَ كَذَلِكَ حَالُ الْعَقْلِ الْمُكْتَسَبِ؛ لِأَنَّ الزِّيَادَةَ فِيهِ زِيَادَةٌ عِلْمٍ بِالْأُمُورِ وَحُسْنُ إِصَابَةٍ بِالظُّنُونِ وَمَعْرِفَةٌ مَا لَمْ يَكُنْ إِلَى مَا يَكُونُ، وَذَلِكَ فَضِيلَةٌ لَا تَقْصُ. وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَفْضَلُ النَّاسِ أَعْقَلُ النَّاسِ» (٤). وَرُوِيَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْعَاقِلُ حَيْثُ كَانَ [أَلُوفٌ] مَأْلُوفٌ» (٥)، وَقَدْ قِيلَ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤]، أَيْ بِحَسَبِ عَقْلِهِ.

وَقَالَ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ: كَانَتْ الْعَرَبُ تَقُولُ: مَنْ لَمْ يَكُنْ عَقْلُهُ أَغْلَبَ خِصَالِ الْخَيْرِ عَلَيْهِ، كَانَ حَتْفُهُ (٦) فِي أَغْلَبِ خِصَالِ الْخَيْرِ عَلَيْهِ. وَقِيلَ فِي مَثُورِ الْحِكْمِ: كُلُّ شَيْءٍ إِذَا كَثُرَ رُحِصَ إِلَّا الْعَقْلُ فَإِنَّهُ إِذَا كَثُرَ غَلَا. وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: إِنَّ الْعَاقِلَ مَنْ عَقْلُهُ فِي إِزْشَادٍ، وَمَنْ رَأَيْتُهُ فِي إِمْدَادٍ، فَقَوْلُهُ سَدِيدٌ، وَفِعْلُهُ حَمِيدٌ، وَالْجَاهِلُ مَنْ جَهْلُهُ فِي إِغْوَاءٍ، وَمَنْ هَوَاهُ فِي إِغْرَاءٍ، فَقَوْلُهُ سَقِيمٌ، وَفِعْلُهُ ذَمِيمٌ، وَأَنْشَدَنِي ابْنُ لُثَيْبٍ (٧):

مَنْ لَمْ يَكُنْ أَنْشَرَهُ عَقْلُهُ أَهْلَكَ أَنْشَرُ مَا فِيهِ

فَأَمَّا الدَّهَاءُ وَالْمَكْرُ فَهُوَ مَذْمُومٌ؛ لِأَنَّ صَاحِبَهُ صَرَفَ فَضْلَ عَقْلِهِ إِلَى الشَّرِّ وَلَوْ صَرَفَهُ إِلَى الْخَيْرِ لَكَانَ مُحْمُودًا، وَقَدْ ذَكَرَ الْمُعْبِرَةُ بْنُ شُعْبَةَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فَقَالَ: كَانَ وَاللَّهِ أَفْضَلَ مِنْ أَنْ يُخْدَعَ، وَأَعْقَلَ مِنْ أَنْ يُخْدَعَ. وَقَالَ عُمَرُ: لَسْتُ بِالْخَبِّ وَلَا يُخْدَعُنِي الْخَبُّ. وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِيمَنْ صَرَفَ فَضْلَ عَقْلِهِ إِلَى الشَّرِّ كَزِيَادٍ، وَأَشْبَاهِهِ مِنَ الدَّهَاءِ، هَلْ يُسَمَّى الدَّاهِيَةَ مِنْهُمْ عَاقِلًا أَمْ لَا؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ:

(١) في النسخة «ج» «ومن أجل» بدل «ولأجل».

(٢) ومقصده إذ به يقتحم عظام الأمور، وكثيرًا ما يهلك دون الوصول إليها.

(٣) والتهور فيه الهلكة دون شك.

(٤) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده ٨٤٦، والحديث موضوع.

(٥) ذكره ابن أبي الدنيا في كتاب المنامات منسويًا إلى الحسن ولم يرفعه [٤٦] وما بين المعكوفين ساقط من المطبوع، وفيه «العقل» بدل «العاقل».

(٦) الحتف: الهلاك والموت. (٧) هو أبو الحسين إبراهيم بن لكنك، شاعر عباسي، له قدم في اللغة والأدب.

أَسْمِيهِ عَاقِلًا؛ لِوُجُودِ الْعَقْلِ مِنْهُ. وَقَالَ آخَرُونَ: لَا أَسْمِيهِ عَاقِلًا حَتَّى يَكُونَ خَيْرًا دِينًا؛ لِأَنَّ الْخَيْرَ وَالِدَيْنِ مِنْ مَوْجِبَاتِ الْعَقْلِ. فَأَمَّا الشَّرِيرُ فَلَا أَسْمِيهِ عَاقِلًا وَإِنَّمَا أَسْمِيهِ صَاحِبَ رُوءِيَةٍ وَفِكْرٍ. وَقَدْ قِيلَ: الْعَاقِلُ مَنْ عَقَلَ عَنِ اللَّهِ أَمْرَهُ وَنَهَيْتِهِ حَتَّى قَالَ أَصْحَابُ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيمَنْ أَوْصَى بِثَلْثِ مَالِهِ لِأَعْقَلِ النَّاسِ أَنَّهُ يَكُونُ مَضْرُوفًا فِي الزُّهَادِ؛ لِأَنَّهُمْ انْقَادُوا لِلْعَقْلِ وَلَمْ يَغْتَرُوا بِالْأَمَلِ. وَرَوَى لُقْمَانَ بْنُ أَبِي عَامِرٍ عَنِ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَا عُوَيْمِرُ ارْزُدْ عَقْلًا تَزِدُّ مِنْ رَبِّكَ قُرْبًا» قُلْتُ: يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، وَمَنْ لِي بِالْعَقْلِ؟ قَالَ: «اجْتَنِبْ مَحَارِمَ اللَّهِ، وَأَدِّ فَرَائِضَ اللَّهِ تَكُنْ عَاقِلًا ثُمَّ تَنْفَلْ بِصَالِحَاتِ الْأَعْمَالِ تَزِدُّ فِي الدُّنْيَا عَقْلًا وَتَزِدُّ مِنْ رَبِّكَ قُرْبًا وَبِهِ عِزًّا»^(١).

وَأَنْشَدَنِي بَعْضُ أَهْلِ الْأَدَبِ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ، وَذَكَرَ أَنَّهَا لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ؑ:

إِنَّ الْمَكَارِمَ أَخْلَاقٌ مُطَهَّرَةٌ	فَالْعَقْلُ أَوْلَاهَا وَالِدَيْنُ ثَانِيهَا
وَالْعِلْمُ ثَالِثُهَا وَالْحِلْمُ رَابِعُهَا	وَالجُودُ خَامِسُهَا وَالْعِزُّ سَادِسُهَا
وَالْبِرُّ سَابِعُهَا وَالصَّبْرُ ثَامِنُهَا	وَالشُّكْرُ تَاسِعُهَا وَاللِّينُ عَاشِيهَا
وَالنَّفْسُ تَعْلَمُ أَنِّي لَا أَصَدِّقُهَا	وَلَسْتُ أَرْشُدُ إِلَّا حِينَ أَغْصِبُهَا
وَالعَيْنُ تَعْلَمُ فِي عَيْنِي مُحَدِّثُهَا	مَنْ كَانَ مِنْ حَزْبِهَا أَوْ مِنْ أَعَادِيهَا
عَيْنَاكَ قَدْ دَلَّتَا عَيْنِي مِنْكَ عَلَى	أَشْيَاءَ لَوْلَاهُمَا مَا كُنْتُ تُبْدِيهَا ^(٢)

وَاعْلَمْ أَنَّ الْعَقْلَ الْمُكْتَسَبَ لَا يَنْفَكُ عَنِ الْعَقْلِ الْغَرِيزِيِّ؛ لِأَنَّهُ نَتِيجَةٌ مِنْهُ. وَقَدْ يَنْفَكُ الْعَقْلُ الْغَرِيزِيُّ عَنِ الْعَقْلِ الْمُكْتَسَبِ فَيَكُونُ صَاحِبُهُ مَسْلُوبَ الْفَضَائِلِ، مَوْفُورَ الرِّذَائِلِ، كَالْأَنْوَكِ^(٣) الَّذِي لَا يَجِدُ لَهُ فَضِيلَةً، وَالْأَحْمَقُ الَّذِي قَلَّ مَا يَخْلُو مِنْ رَذِيلَةٍ، وَقَدْ رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْأَحْمَقُ كَالْفَخَّارِ لَا يَرْقَعُ وَلَا يُشَعَّبُ»^(٤). وَرَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْأَحْمَقُ أَبْغَضُ خَلْقِ اللَّهِ إِلَيْهِ، إِذْ حَرَمَهُ أَعَزُّ الْأَشْيَاءِ عَلَيْهِ»^(٥).

(١) سبق تخريجه وبيان أنه حديث موضوع.

(٢) ذكرت هذه الأبيات في روضة العقلاء لأبي حاتم البستي ص ٢٣ مع اختلاف في بعض الكلمات مثل:

إِنَّ الْمَكَارِمَ أَبْوَابٌ مُصَنَّفَةٌ

ومعنى «ساديسها»: سادسها، ومعنى «عاشيها»: عاشرها وقد نسبت الأبيات في روضة العقلاء لعلي بن محمد البشامي، بينما نسبت هنا للإمام علي بن أبي طالب، فتأمل.

(٣) الأنوك: الأحمق.

(٤) انظر جمع الجوامع للسيوطي ٢/ ٢١٧، ولم يعزه.

(٥) السابق ٢/ ٢١٨ ولم يعزه.

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الْحَاجَةُ إِلَى الْعَقْلِ أَتْبَحُ مِنَ الْحَاجَةِ إِلَى الْمَالِ، وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: دَوْلَةُ الْجَاهِلِ عَيْبَةُ الْعَاقِلِ، وَقَالَ أُوشِرُوَانْ لِبِرَزْ جَمَهَرٍ: أَيُّ الْأَشْيَاءِ خَيْرٌ لِلْمَرْءِ؟ قَالَ: عَقْلٌ يَعِيشُ بِهِ. قَالَ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ؟ قَالَ: فَإِخْوَانٌ يَسْتُرُونَ عَيْبَهُ. قَالَ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ؟ قَالَ: فَمَالٌ يَتَحَبَّبُ بِهِ إِلَى النَّاسِ. قَالَ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ؟ قَالَ: فَعِيٌّ صَامِتٌ. قَالَ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ؟ قَالَ: فَمَوْتُ جَارِفٌ. وَقَالَ سَابُورُ بْنُ أَرْدَشِيرٍ: الْعَقْلُ نَوْعَانِ: أَحَدُهُمَا مَطْبُوعٌ، وَالْآخَرُ مَسْمُوعٌ. وَلَا يَصْلُحُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا إِلَّا بِصَاحِبِهِ، فَأَخَذَ ذَلِكَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ ^(١) فَقَالَ:

رَأَيْتُ الْعَقْلَ نَوْعَيْنِ فَمَسْمُوعٌ وَمَطْبُوعٌ
وَلَا يَنْفَعُ مَنْمُوعٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَطْبُوعٌ
كَمَا لَا تَنْفَعُ الشَّمْسُ وَضَوْؤُ الْعَيْنِ مَنْمُوعٌ

[صفة العاقل والأحمق]

وَقَدْ وَصَفَ بَعْضُ الْأَدْبَاءِ الْعَاقِلَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْفَضَائِلِ، وَالْأَحْمَقَ بِمَا فِيهِ مِنَ الرَّدَائِلِ، فَقَالَ: الْعَاقِلُ إِذَا وَالَّ بَدَلٍ فِي الْمَوَدَّةِ نَضْرَهُ، وَإِذَا عَادَى رَفَعَ عَنِ الظُّلْمِ قَدْرَهُ، فَيُسْعِدُ مَوَالِيَهُ بِعَقْلِهِ، وَيَعْتَصِمُ مُعَادِيَهُ بِعَدْلِهِ. إِنْ أَحْسَنَ إِلَى أَحَدٍ تَرَكَ الْمُطَالِبَةَ بِالشُّكْرِ، وَإِنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ مُسِيءٌ سَبَّبَ لَهُ أَسْبَابَ الْعُذْرِ، أَوْ مَنَحَهُ الصَّفْحَ وَالْعَفْوَ. وَالْأَحْمَقُ ضَالٌّ مُضِلٌّ إِنْ أُوْنِسَ تَكَبَّرَ، وَإِنْ أُوْحِشَ تَكَدَّرَ، وَإِنْ أُسْتُنِطِقَ تَخَلَّفَ، وَإِنْ تُرِكَ تَكَلَّفَ، مُجَالَسَتُهُ مَهِنَةٌ ^(٢)، وَمُعَابَتُهُ مِحْنَةٌ، وَمُحَاوَرَتُهُ نَعْرٌ، وَمُؤَالَاتُهُ نَضْرٌ، وَمُقَارَنَتُهُ عَمَى، وَمُقَارَنَتُهُ شَقَا. وَكَانَتْ مُلُوكُ الْفُرْسِ إِذَا غَضِبَتْ عَلَى عَاقِلٍ حَبَسَتْهُ مَعَ جَاهِلٍ. وَالْأَحْمَقُ يُسِيءُ إِلَى غَيْرِهِ وَيَظُنُّ أَنَّهُ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ فَيُطَالِبُهُ بِالشُّكْرِ، وَيُحْسِنُ إِلَيْهِ فَيَظُنُّ أَنَّهُ قَدْ أَسَاءَ فَيُطَالِبُهُ بِالْوَتْرِ ^(٣)، فَمَسَاوِيءُ الْأَحْمَقِ لَا تَنْفَضِي وَعُيُوبُهُ لَا تَتَنَاهَى وَلَا يَقِفُ النَّظَرُ مِنْهَا إِلَى عَايَةِ إِلَّا لَوْحَتْ مَا وَرَاءَهَا مِمَّا هُوَ أَدْنَى مِنْهَا، وَأَزْدَى، وَأَمْرٌ، وَأَذَى، فَمَا أَكْثَرَ الْعَبْرَ لِمَنْ نَظَرَ، وَأَنْفَعَهَا لِمَنْ اعْتَبَرَ.

وَقَالَ الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ ^(٤): مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُحْفَظُ الْأَحْمَقُ إِلَّا مِنْ نَفْسِهِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: إِنْ الدُّنْيَا رَبَّمَا أَقْبَلْتَ عَلَى الْجَاهِلِ بِالِاتِّفَاقِ، وَأَذْبَرْتَ عَنِ الْعَاقِلِ بِالِاسْتِحْقَاقِ. فَإِنْ أَتَيْتَ مِنْهَا سُهْمَةً مَعَ جَهْلٍ، أَوْ فَاتَتْكَ مِنْهُ بُغْيَةٌ مَعَ عَقْلِ، فَلَا يَحْمِلُكَ ذَلِكَ عَلَى الرَّغْبَةِ فِي الْجَهْلِ،

(١) نسبها في روضة العقلاء لأبي حاتم البستي إلى محمد بن إسحاق من حبيب الواسطي ص ١٣.

(٢) أي ذلة وحفارة.

(٣) أي بالحق والكرهية والعداوة.

(٤) الأحنف ابن قيس بن معاوية من أجواد العرب، أدرك النبي ﷺ ولم يره، ولذا عدوه في التابعين توفي سنة ٦٧ هـ.

وَالزُّهْدِ فِي الْعَقْلِ. فَذَوْلَةُ الْجَاهِلِ مِنَ الْمُمَكِّنَاتِ، وَذَوْلَةُ الْعَاقِلِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ. وَلَيْسَ مِنْ أَمَكْنَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَاتِهِ، كَمَنْ اسْتَوْجَبَهُ بِآلَتِهِ، وَأَدْوَاتِهِ. وَبَعْدُ فَذَوْلَةُ الْجَاهِلِ كَالْغَرِيبِ الَّذِي يَحِنُّ إِلَى الثَّقَلَةِ، وَذَوْلَةُ الْعَاقِلِ كَالنَّسِيبِ الَّذِي يَحِنُّ إِلَى الْوَضَلَةِ. فَلَا يَفْرُحُ الْمَرْءُ بِحَالِهِ جَلِيلَةً نَالَهَا بِغَيْرِ عَقْلِ، وَمَنْزِلَةً رَفِيعَةً حَلَّهَا بِغَيْرِ فَضْلِ. فَإِنَّ الْجَهْلَ يُنْزِلُهُ مِنْهَا، وَيُزِيلُهُ عَنْهَا، وَيَحْطُطُهُ إِلَى رُتْبَتِهِ، وَيُرْذُهُ إِلَى قِيمَتِهِ، بَعْدَ أَنْ تَظْهَرَ عُيُوبُهُ، وَتَكَثَّرَ ذُنُوبُهُ، وَيَصِيرَ مَادِحُهُ هَاجِتًا، وَوَلِيُّهُ مُعَادِيًا. وَاعْلَمْ أَنَّهُ بِحَسَبِ مَا يُنْشَرُ مِنْ فَضَائِلِ الْعَاقِلِ، كَذَلِكَ يَظْهَرُ مِنْ رَدَائِلِ الْجَاهِلِ، حَتَّى يَصِيرَ مَثَلًا فِي الْغَابِرِينَ، وَحَدِيثًا فِي الْآخِرِينَ، مَعَ هَتِكِهِ فِي عَضْرِهِ، وَقُبْحِ ذِكْرِهِ فِي ذَهْرِهِ، كَالَّذِي رَوَاهُ عَطَاءٌ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ لَهُ حِمَارٌ، فَقَالَ: يَا رَبِّ لَوْ كَانَ لَكَ حِمَارٌ لَعَلَّفْتَهُ مَعَ حِمَارِي، فَهَمَّ بِهِ نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: إِنَّمَا أُتِيبَ كُلُّ إِنْسَانٍ عَلَى قَدْرِ عَقْلِهِ.

وَاسْتَعْمَلَ مُعَاوِيَةَ رَجُلًا مِنْ كَلْبٍ ^(١) فَذَكَرَ الْمَجُوسُ يَوْمَ مَا عِنْدَهُ فَقَالَ: لَعَنَ اللَّهُ الْمَجُوسَ يَنْكِحُونَ أُمَّهَاتِهِمْ، وَاللَّهُ لَوْ أُعْطِيتُ عَشْرَةَ آلَافٍ دِرْهَمٍ مَا نَكَحْتُ أُمَّي.

فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاوِيَةَ فَقَالَ: قَبِيحَهُ اللَّهُ - أَتَرَوْنَهُ لَوْ زَادُوهُ فَعَلَ؟ وَعَزَلَهُ وَوَلَّى الرَّبِيعَ الْعَامِرِيَّ - وَكَانَ مِنَ النَّوْكَِيِّ ^(٢) - عَلَى سَائِرِ الْيَمَامَةِ فَقَادَ ^(٣) كَلْبًا بِكَلْبٍ فَقَالَ فِيهِ الشَّاعِرُ:

شَهِدْتُ بِأَنَّ اللَّهَ حَقًّا لِقَاؤُهُ وَأَنَّ الرَّبِيعَ الْعَامِرِيَّ رَقِيعٌ
أَقَادَ لَنَا كَلْبًا بِكَلْبٍ وَلَمْ يَدْعُ دِمَاءَ كِلَابِ الْمُسْلِمِينَ تَضِيعُ
وَلَيْسَ لِمَعَارِ الْجَهْلِ غَايَةٌ، وَلَا لِمُضَارِّ الْحَقِّ نَهَايَةٌ. قَالَ الشَّاعِرُ:
لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ يُسْتَطَبُ بِهِ إِلَّا الْحَمَاقَةَ أَعْيَتْ مَنْ يُدَاوِيهَا ^(٤)

[العقل والهوى]

وَأَمَّا الْهَوَى فَهُوَ عَنِ الْخَيْرِ صَادٌّ، وَلِلْعَقْلِ مُضَادٌّ؛ لِأَنَّهُ يُنتِجُ مِنَ الْأَخْلَاقِ قَبَائِحَهَا، وَيُظْهِرُ مِنَ الْأَفْعَالِ فَضَائِحَهَا، وَيَجْعَلُ سِتْرَ الْمُرُوءَةِ مَهْتُوكًا، وَمَذْخَلَ الشَّرِّ مَسْلُوكًا.
قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : الْهَوَى إِلَهٌ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

(١) قبيلة «كلب» من عرب اليمن، كانت تسكن أرض «السماوة» بين الشام والعراق، تزوج منهم معاوية بن أبي سفيان.

(٢) النوكي: الحمقى.

(٣) أي قتل منهم كلبًا بكلب قصاصًا، وعلى هذا فالقود: القصاص.

(٤) البيت في ربيع الأبرار للزمخشري غير منسوب ١/٣٦٩.

ثُمَّ تَلَا: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وَقَالَ عِكْرِمَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّكُمْ
فَدَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ يَغْنِي بِالشَّهَوَاتِ ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ يَغْنِي بِالتَّوْبَةِ ﴿وَأَرْتَبْتُمْ﴾ يَغْنِي فِي أَمْرِ اللَّهِ ﴿وَعَزَّزْتُمْ
الْأَمَانِي﴾ يَغْنِي بِالشَّوْبِيفِ ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ يَغْنِي الْمَوْتَ ﴿وَعَزَّزْكُمْ بِاللَّهِ الْعَزِيزِ﴾ [الحديد: ١٤]
يَغْنِي الشَّيْطَانَ. وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «طَاعَةَ الشَّهْوَةِ دَاءٌ، وَعَضِيَانُهَا دَوَاءٌ»^(١)، وَقَالَ عَمْرُ بْنُ
الْحَطَّابِ: «أَقْدَعُوا»^(٢) هَذِهِ الثُّفُوسَ عَنِ شَهَوَاتِهَا فَإِنَّهَا طَلَعَةٌ^(٣) تَنْزِعُ إِلَى شَرِّ غَايَةٍ.

إِنَّ هَذَا الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيٌّ^(٤)، وَإِنَّ الْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيٌّ^(٥)، وَتَرَكَ الْخَطِيئَةَ خَيْرٌ مِنْ مُعَالَجَةِ التَّوْبَةِ
وَرُبَّ نَظْرَةٍ زَرَعَتْ شَهْوَةً، وَشَهْوَةٌ سَاعَةٍ أَوْرَثَتْ حُرْنَا طَوِيلًا.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: «أَخَافُ عَلَيْكُمْ اثْنَيْنِ: اتِّبَاعَ الْهَوَى وَطُولَ الْأَمَلِ، فَإِنَّ اتِّبَاعَ الْهَوَى
يُضِدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَطُولُ الْأَمَلِ يُنْسِي الْأَخْرَةَ.

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: إِنَّمَا سُمِّيَ الْهَوَى هَوَى؛ لِأَنَّهُ يَهْوِي بِصَاحِبِهِ.

وَقَالَ أَعْرَابِيُّ: الْهَوَى هَوَانٌ وَلَكِنْ غَلَطَ بِاسْمِهِ، فَأَخَذَهُ الشَّاعِرُ وَقَالَ:

إِنَّ الْهَوَانَ هُوَ الْهَوَى قُلِّبَ اسْمُهُ فَإِذَا هَوَيْتَ فَقَدْ لَقَيْتَ هَوَانًا^(٦)

وَقِيلَ فِي مَنْتَوْرِ الْحِكْمِ: مَنْ أَطَاعَ هَوَاهُ، أُعْطِيَ عَدُوَّهُ مَنَاهُ، وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الْعَقْلُ صَدِيقُ
مَقْطُوعٍ، وَالْهَوَى عَدُوٌّ مَتَّبِعٌ، وَقَالَ بَعْضُ الْبُلْغَاءِ: أَفْضَلُ النَّاسِ مَنْ عَصَى هَوَاهُ، وَأَفْضَلُ مِنْهُ مَنْ
رَفَضَ دُتْيَاهُ. وَقَالَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْصِ الْهَوَى قَادَكَ الْهَوَى إِلَى كُلِّ مَا فِيهِ عَلَيْكَ مَقَالٌ

قَالَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : لَمْ يَقُلْ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ سِوَى هَذَا النَّبْتِ.

وَقَالَ الشَّاعِرُ:

(١) ذكره السيوطي في جمع الجوامع ولم يعزه ٧١٦/٢.

(٢) اقدعوا: امنعوا.

(٣) في المطبوع «طلاعة»، والصواب: ما أثبتته «طلعه»، وهي هكذا في منهاج اليقين بشرح أدب الدنيا والدين.

(٤) فسرّها المرحوم العلامة مصطفى السقا بقوله: مري بالبياء المشددة: أي كالمرى في إصلاح البدن، أي إن منع النفس عن شهواتها، وإن كان ثقیلاً عليها فقد يحفظ صحة الروح، كما يحفظ المری صحة البدن، أفاده الشارح في منهاج اليقين. والمرى دواء قديم معروف عند الأطباء، استنبطه الكلدانیون، ذكروا من فوائده أشياء كثيرة. قال الشيخ داود الأنطاكي في التذكرة: من الأدوية القديمة التي استخرجها الكلندانیون والقبط... يستأصل شأفة البلغة بقوة، والأخلاق اللزجة، ويغسل اللغائف والبطن من الديدان والحيات والأخلاق الفاسدة، غسلًا لا يعدله غيره، ويدر الفضلات، ويشهي، ويمنع التخم، وفساد الأطعمة... إلخ.

(٦) انظر محاضرات الأدباء ١/ ٣٠.

(٥) أصلها: وبىء، وهو الوخيم.

إِذَا مَا رَأَيْتَ الْمَرْءَ يَقْتَادُهُ الْهَوَىٰ
 وَقَدْ أَشْمَتَ الْأَعْدَاءَ جَهْلًا بِنَفْسِهِ
 وَقَدْ نَكَلْتَهُ عِنْدَ ذَلِكَ نَوَاصِلَهُ^(١)
 وَقَدْ وَجَدْتَ فِيهِ مَقَالًا عَوَازِلَهُ
 مِنَ النَّاسِ إِلَّا حَازِمَ الرَّأْيِ كَامِلَهُ

فَلَمَّا كَانَ الْهَوَىٰ غَالِبًا، وَإِلَى سَبِيلِ الْمَهَالِكِ مُورِدًا، جَعَلَ الْعَقْلُ عَلَيْهِ رَقِيًّا مُجَاهِدًا يُلَاحِظُ عَثْرَةَ
 عَقْلِيَّتِهِ، وَيُدْفَعُ بِأَدْرَةٍ سَطْوَتِهِ، وَيُدْفَعُ خِدَاعَ حِيلَتِهِ؛ لِأَنَّ سُلْطَانَ الْهَوَىٰ قَوِيٌّ، وَمُدْخَلَ مَكْرِهِ خَفِيٌّ. وَمِنْ
 هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ يُؤْتَى الْعَاقِلُ حَتَّى تَنْفُذَ أَحْكَامَ الْهَوَىٰ عَلَيْهِ أَعْيُنِي بِأَحَدِ الْوَجْهَيْنِ: قُوَّةُ سُلْطَانِهِ وَبِالْآخَرِ
 خَفَاءَ مَكْرِهِ. فَأَمَّا الْوَجْهُ الْأَوَّلُ فَهُوَ أَنَّ يَقْوَى سُلْطَانَ الْهَوَىٰ بِكَثْرَةِ دَوَاعِيهِ حَتَّى يَسْتَوْلِيَ عَلَيْهِ مُعَالِبَةُ
 الشَّهَوَاتِ فَيَكِلُ الْعَقْلُ عَنْ دَفْعِهَا، وَيَضْعُفُ عَنْ مَنَعِهَا، مَعَ وُضُوحِ قُبْحِهَا فِي الْعَقْلِ الْمُقْتَهَرِ بِهَا،
 وَهَذَا يَكُونُ فِي الْأَحْدَاثِ أَكْثَرَ وَعَلَى السَّبَابِ أَغْلَبَ؛ لِقُوَّةِ شَهَوَاتِهِمْ؛ وَكَثْرَةِ دَوَاعِي الْهَوَى الْمُتَسَلِّطِ
 عَلَيْهِمْ وَإِنَّهُمْ رَبَّمَا جَعَلُوا السَّبَابَ عُذْرًا لَهُمْ، كَمَا قَالَ مُحَمَّدُ ابْنُ بَشِيرٍ:

كُلُّ يَسْرِي أَنْ السَّبَابَ لَهُ فِي كُلِّ مُبْلَغٍ لَذَّةٌ عُذْرًا

وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الْهَوَى مَلِكٌ غَشُومٌ، وَمُتَسَلِّطٌ ظَلُومٌ. وَقَالَ بَعْضُ الْأَدْبَاءِ: الْهَوَى
 عَسُوفٌ، وَالْعُدْلُ مَأْلُوفٌ. وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

يَا عَاقِلًا أزدَى الْهَوَى عَقْلُهُ

أَتَجْعَلُ الْعَقْلَ أَسِيرَ الْهَوَى

وَحَسْبُ ذَلِكَ أَنْ يَسْتَعِينَ بِالْعَقْلِ عَلَى النَّفْسِ التَّفُورَةِ فَيَشْعِرُهَا مَا فِي عَوَاقِبِ الْهَوَى مِنْ شِدَّةِ
 الضَّرَرِ، وَيَقْبِحُ الْأَثَرَ، وَكَثْرَةَ الْأَجْرَامِ، وَتَرَاحِمَ الْأَثَامِ.

فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»^(٢)، أَخْبَرَ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى
 الْجَنَّةِ اخْتِمَالُ الْمَكَارِهِ، وَالطَّرِيقَ إِلَى النَّارِ اتِّبَاعُ الشَّهَوَاتِ.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ؑ: إِيَّاكُمْ وَتَحْكِيمَ الشَّهَوَاتِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّ عَاجِلَهَا دَمِيمٌ، وَآجِلُهَا
 وَخِيمٌ، فَإِنَّ لَمْ تَرَهَا تَتَّقَادُ بِالتَّحْدِيرِ وَالْإِزْهَابِ، فَسَوْفَهَا بِالتَّأْمِيلِ وَالْإِزْغَابِ، فَإِنَّ الرَّغْبَةَ وَالرَّهْبَةَ إِذَا
 اجْتَمَعَا عَلَى النَّفْسِ ذَلَّتْ لَهُمَا وَانْقَادَتْ.

(١) في المطبوعة، يعتاده، والصواب يقناده، من قولهم: اقتاد الدابة أي سحبها من أمامها.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٨٧، ومسلم في صفة الجنة ٢٨٢٣.

وَقَدْ قَالَ ابْنُ السَّمَاكِ: كُنْ لِهَوَاكَ مُسَوِّفًا، وَلَعَقْلِكَ مُسْعِفًا، وَانظُرْ إِلَى مَا تَسُوءُ عَاقِبَتُهُ فَوَطَّنْ نَفْسَكَ عَلَى مُجَابَّتِهِ فَإِنَّ تَرَكَ النَّفْسَ وَمَا تَهْوَى دَاوَاهَا، وَتَرَكَ مَا تَهْوَى دَوَائُهَا، فَاصْبِرْ عَلَى الدَّوَاءِ، كَمَا تَخَافُ مِنَ الدَّاءِ. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

صَبْرْتُ عَلَى الْأَيْسَامِ حَتَّى تَوَلَّتْ وَالزَّمْتُ نَفْسِي صَبْرَهَا فَاسْتَمَرَّتْ
وَمَا النَّفْسُ إِلَّا حَيْثُ يَجْعَلُهَا الْفَتَى فَإِنْ طَمِعَتْ نَاقَتْ وَإِلَّا تَسَلَّتْ^(١)

فَإِذَا انْقَادَتْ النَّفْسُ لِلْعَقْلِ بِمَا قَدْ أُشْعِرَتْ مِنْ عَوَاقِبِ الْهَوَى لَمْ يَلْبَثِ الْهَوَى أَنْ يَصِيرَ بِالْعَقْلِ مَذْهُورًا، وَبِالنَّفْسِ مَفْهُورًا، ثُمَّ لَهُ الْحِطُّ الْأَوْفَى فِي ثَوَابِ الْخَالِقِ وَنِئَابِ الْمَخْلُوقِينَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ ﴿٤١﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: أَفْضَلُ الْجِهَادِ جِهَادُ الْهَوَىٰ.

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: أَعَزُّ الْعِزِّ الْاِمْتِنَاعُ مِنْ مَلِكِ الْهَوَىٰ.

وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: خَيْرُ النَّاسِ مَنْ أَخْرَجَ الشَّهْوَةَ مِنْ قَلْبِهِ، وَعَصَى هَوَاهُ فِي طَاعَةِ رَبِّهِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْأَدْبَاءِ: مَنْ أَمَاتَ شَهْوَتَهُ، فَقَدْ أَحْيَا مُرُوءَتَهُ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: رَكَّبَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ مِنْ عَقْلِ بِلَا شَهْوَةٍ، وَرَكَّبَ الْبَهَائِمَ مِنْ شَهْوَةٍ بِلَا عَقْلِ، وَرَكَّبَ ابْنَ آدَمَ مِنْ كِلَيْهِمَا؛ فَمَنْ غَلَبَ عَقْلُهُ عَلَى شَهْوَتِهِ فَهُوَ خَيْرٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَمَنْ غَلَبَتْ شَهْوَتُهُ عَلَى عَقْلِهِ فَهُوَ شَرٌّ مِنَ الْبَهَائِمِ^(٢).

وَقِيلَ لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ: مَنْ أَشْجَعَ النَّاسِ، وَأَحْرَاهُمْ بِالظَّفْرِ فِي مُجَاهَدَتِهِ؟ قَالَ: مَنْ جَاهَدَ الْهَوَى طَاعَةً لِرَبِّهِ، وَاخْتَرَسَ فِي مُجَاهَدَتِهِ مِنْ وُرُودِ خَوَاطِرِ الْهَوَى عَلَى قَلْبِهِ. وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

قَدْ يُدْرِكُ الْحَازِمُ ذُو الرَّأْيِ الْمُنَى بِطَاعَةِ الْحَزْمِ وَعِضْيَانِ الْهَوَى

وَأَمَّا الْوَجْهُ الثَّانِي: فَهُوَ أَنْ يُخْفِيَ الْهَوَى بِكُرْهِهِ حَتَّى تَتَمَوَّهَ أَعْمَالُهُ عَلَى الْعَقْلِ فَيَتَصَوَّرَ الْقَبِيحَ حَسَنًا وَالضَّرَرَ نَفْعًا. وَهَذَا يَدْعُو إِلَيْهِ أَحَدُ شَيْئَيْنِ: أَمَّا أَنْ يَكُونَ لِلنَّفْسِ مَبْلٌ إِلَى ذَلِكَ الشَّيْءِ فَيُخْفِي عَنْهَا الْقَبِيحَ لِحُسْنِ ظَنِّهَا وَتَتَصَوَّرُهُ حَسَنًا لِشِدَّةِ مَبْلِهَا.

وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ»^(٣).

أَيُّ يُعْمِي عَنِ الرَّشْدِ وَيُصِمُّ عَنِ الْمَوْعِظَةِ. وَقَالَ عَلِيُّؓ: الْهَوَى عَمَى.

(١) نَسَلَتْ: نَسِيتْ هَوَاجِسَهَا.

(٢) انظر هذه الأخبار في الكامل للمبرد ٩٧/٣.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ١٩٤/٥، وأبو داود في السنن ٥١٣٠ وضعفه الألباني، انظر السلسلة الضعيفة ١٨٦٨.

قَالَ الشَّاعِرُ:

حَسَنٌ فِي كُلِّ عَيْنٍ مِّنْ تَوَدُّ

وَقَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُعَاوِيَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ^(١):

وَلَسْتُ بِرَاءٍ عَيْبَ ذِي الْوُدِّ كُلِّهِ وَلَا بَعْضَ مَا فِيهِ إِذَا كُنْتُ رَاضِيًا

فَعَيْنُ الرُّضَى عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبَدِّي الْمَسَاوِيَا

وَأَمَّا السَّبَبُ الثَّانِي: فَهُوَ اسْتِغَالُ الْفِكْرِ فِي تَمْيِيزِ مَا اشْتَبَهَ فَيَطْلُبُ الرَّاحَةَ فِي اتِّبَاعِ مَا اسْتَسْهَلَ حَتَّى يَظُنَّ أَنَّ ذَلِكَ أَوْفَقُ أَمْرِيهِ، وَأَحْمَدُ حَالِيهِ، اغْتِرَازًا بِأَنَّ الْأَسْهَلَ مَحْمُودٌ وَالْأَعْسَرَ مَذْمُومٌ فَلَمَّا يَغْدَمُ أَنْ يَتَوَرَّطَ بِخِدَعِ الْهَوَى وَرَبِيَّةِ الْمَكْرِ فِي كُلِّ مَخُوفٍ حَذِرٍ، وَمَكْرُوهِ عَسِيرٍ. وَلِذَلِكَ قَالَ عَامِرُ بْنُ الظَّرِبِ: الْهَوَى يَنْظَانُ وَالْعَقْلُ رَاقِدٌ فَمِنْ نَمَّ عَلَبَ. وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ وَهَبٍ: الْهَوَى أَمْنَعُ، وَالرَّأْيُ أَنْفَعُ.

وَقِيلَ فِي الْمَثَلِ: الْعَقْلُ وَزِيرٌ نَاصِحٌ، وَالْهَوَى وَكَيْلٌ فَاضِحٌ. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

إِذَا الْمَرْءُ أَعْطَى نَفْسَهُ كُلَّمَا اشْتَهَتْ وَلَمْ يَنْهَهَا نَاقَتْ إِلَى كُلِّ بَاطِلٍ

وَسَاقَتْ إِلَيْهِ الْإِنَّمِ وَالْعَارَ بِالَّذِي دَعَاهُ إِلَيْهِ مِنْ حَلَاوَةِ عَاجِلٍ

وَحَسْمُ السَّبَبِ الْأَوَّلِ أَنْ يُجْعَلَ فِكْرَ قَلْبِهِ حَكْمًا عَلَى نَظَرِ عَيْنِهِ. فَإِنَّ الْعَيْنَ رَائِدُ الشَّهْوَةِ، وَالشَّهْوَةُ مِنْ دَوَاعِي الْهَوَى، وَالْقَلْبَ رَائِدُ الْحَقِّ وَالْحَقُّ مِنْ دَوَاعِي الْعَقْلِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: نَظَرُ الْجَاهِلِ بِعَيْنِهِ وَنَاطِرُهُ، وَنَظَرُ الْعَاقِلِ بِقَلْبِهِ وَخَاطِرُهُ، ثُمَّ يَتَّبِعُهُمْ نَفْسُهُ فِي صَوَابٍ مَا أَحَبَّتْ وَتَحْسِينٍ مَا اشْتَهَتْ؛ لِيَصِحَّ لَهُ الصَّوَابُ وَيَتَبَيَّنَ لَهُ الْحَقُّ، فَإِنَّ الْحَقَّ أَنْقَلَ مَحْمَلًا، وَأَضْعَبَ مَرْكَبًا فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْهِ أَمْرَانِ اجْتَنِبَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ، وَتَرَكَ أَسْهَلَهُمَا عَلَيْهِ. فَإِنَّ النَّفْسَ عَنِ الْحَقِّ أَنْفَرُ، وَلِلْهَوَى آثَرُ.

وَقَدْ قَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: إِذَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ أَمْرَانِ فَدَعِ أَحَبَّهُمَا إِلَيْكَ، وَخُذْ أَنْقَلَهُمَا عَلَيْكَ. وَعِلَّةُ هَذَا الْقَوْلِ هُوَ أَنَّ الثَّقِيلَ يُنْطِئُ النَّفْسَ عَنِ التَّسْرِعِ إِلَيْهِ فَيَتَّضِعُ مَعَ الْإِبْطَاءِ وَتَطَاوُلِ الزَّمَانِ صَوَابٌ مَا اسْتَعْجَمَ، وَظُهُورُ مَا اسْتَبْهَمَ.

(١) كان بينه وبين الحسين بن عبد الله بن العباس صداقة، ثم وقعت بينهما مخاصمة، فتهاجرا فقال عبد الله:

إِنَّ حُسَيْنًا كَانَ شَيْئًا مُلْفَقًا فَمَحَّضَهُ التَّكْشِيفُ حَتَّى بَدَأَ لِيَا
وَأَنْتَ أَحْيَى مَا لَمْ تَكُنْ لِي حَاجَةً فَإِنْ عَرَضَتْ أَبْقَنْتُ أَنْ لَا أَحَا لِيَا

ولست براء... إلخ... البيتين «عن منهاج اليقين».

وَقَدْ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: مَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ وَالْمُحِبُّوبُ أَسْهَلُ شَيْءٍ تُسْرِعُ النَّفْسُ إِلَيْهِ، وَتُعَجِّلُ
بِالْإِقْدَامِ عَلَيْهِ، فَيَقْضُرُ الزَّمَانَ عَنْ تَصَفُّحِهِ وَيَقْوَتُ اسْتِدْرَاكُهُ لِتَقْصِيرِ فِعْلِهِ فَلَا يَنْفَعُ التَّصَفُّحُ ^(١) بَعْدَ
الْعَمَلِ وَلَا الِاسْتِبَانَةَ بَعْدَ الْقَوْتِ. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: مَا كَانَ عَنْكَ مُعْرِضًا، فَلَا تَكُنْ بِهِ مُتَعَرِّضًا.
وَقَالَ الشَّاعِرُ:

أَلَيْسَ طِلَابُ مَا قَذَفَاتِ جَهْلًا وَذِكْرُ الْمَرْءِ مَا لَا يَسْتَطِيعُ

وَلَقَدْ وَصَفَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ حَالَ الْهَوَى وَمَا يُقَارِنُهُ مِنْ مَحَنِ الدُّنْيَا فَقَالَ: الْهَوَى مَطِيئَةُ الْفِتْنَةِ، وَالدُّنْيَا
دَارُ الْمِخْنَةِ، فَأَنْزَلَ عَنِ الْهَوَى تَسْلِمًا، وَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا تَغْنَمًا، وَلَا يُعْرِثُكَ هَوَاكَ بِطَيْبِ الْمَلَاهِي وَلَا
تَفْتِيكَ دُنْيَاكَ بِحُسْنِ الْعَوَارِي. فَمُدَّةُ الْهَوَى تَنْقَطِعُ وَعَارِيَةُ الدَّهْرِ تَزْتَجِعُ ^(٢)، وَيَبْقَى عَلَيْكَ مَا تَزْتَكِبُهُ مِنَ
الْمَحَارِمِ، وَتَكْتَسِبُهُ مِنَ الْمَأْتِمِ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْجَعْفَرِيُّ ^(٣): سَمِعْتَنِي امْرَأَةً بِالطَّوْافِ، وَأَنَا أَنْشِدُ:

أَهْوَى هَوَى الدِّينِ وَاللَّدَاتِ تُعْجِبُنِي فَكَيْفَ لِي بِهَوَى اللَّذَاتِ وَالدِّينِ

فَقَالَتْ: هُمَا ضَرَّتَانِ فَذَرِ أَيُّهُمَا شِئْتَ وَخُذِ الْأُخْرَى.

فَأَمَّا فَرْقُ مَا بَيْنَ الْهَوَى وَالشَّهْوَةِ مَعَ اجْتِمَاعِيهِمَا فِي الْعِلَّةِ وَالْمَعْلُولِ، وَاتَّفَاقِيهِمَا فِي الدَّلَالَةِ
وَالْمَذْلُولِ، فَهُوَ أَنَّ الْهَوَى مُخْتَصِّصٌ بِالْأَرَاءِ وَالِاِغْتِفَادَاتِ، وَالشَّهْوَةُ مُخْتَصَّصَةٌ بِتَيْلِ اللَّذَّةِ. فَصَارَتْ
الشَّهْوَةُ مِنْ نَتَائِجِ الْهَوَى وَهِيَ أَحْصَى، وَالْهَوَى أَصْلٌ هُوَ أَعْمٌ.

وَنَحْنُ نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَكْفِينَا دَوَاعِيَ الْهَوَى، وَيَضْرِفَ عَنَّا سُبُلَ الرَّدْيِ، وَيَجْعَلَ التَّوْفِيقَ لَنَا
قَائِدًا، وَالْعَقْلَ لَنَا مُرْشِدًا.

فَقَدْ رَوَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى عِيْسَى عليه السلام: عِظْ نَفْسَكَ فَإِنَّهَا تَعَطَّتْ فَعِظْ النَّاسَ وَإِلَّا فَاسْتَحْيِ
مَنِّي. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كُنَاسَةَ:

مَا مَنْ رَوَى أَبَا وَلَمْ يَفْعَلْ بِهِ وَيَكْفَى عَنْ زَيْغِ الْهَوَى بِأَدَبِ

حَتَّى يَكُونَ بِمَا تَعَلَّمَ عَامِلًا مِنْ صَالِحٍ فَيَكُونَ غَيْرَ مَعِيْبِ

وَلَقَلَّمَا تُفْنِي إِصَابَةَ قَائِلِ أَعْمَالُهُ أَعْمَالُ غَيْرِ مُصِيبِ

(١) التصفح: طول التأمل. (٢) في طبعة بولاق، ترجع، وما ذكرته هنا من منهاج اليقين وهو الأصوب.

(٣) هو الإمام علي بن المديني شيخ المحدثين وإمامهم توفي سنة ٢٣٤هـ.

وَقَالَ آخِرُ^(١):

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُعَلَّمُ غَيْرُهُ
تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السَّقَامِ وَذِي الضَّنَى
أَبْدَأُ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيْبِهَا
فَهَنَّاكَ تُغْذِرُ إِنْ وَعَظْتَ وَتُقْتَدَى
لَا تَنْهَ عَنِ خُلُقِي وَتَأْتِي مِثْلَهُ
عَارٌّ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

حَكَى أَبُو فَرَوَةَ^(٢) أَنَّ طَارِقًا صَاحِبَ شُرْطَةِ خَالِدِ الْقَسْرِيِّ^(٣) مَرَّ بِابْنِ شُبْرُمَةَ^(٤) وَطَارِقٍ فِي مَوْكِبِهِ
فَقَالَ ابْنُ شُبْرُمَةَ:

أَرَاهَا وَإِنْ كَانَتْ تَخُبُ كَاتِبَهَا
سَحَابَةٌ صَيْفٍ عَنْ قَرِيبٍ تَقَشُّعُ^(٥)

اللَّهُمَّ لِي دِينِي وَلَهُمْ دُنْيَاهُمْ. فَاسْتَعْمَلَ ابْنُ شُبْرُمَةَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى الْقَضَاءِ فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ أَبُو بَكْرٍ:
أَتَذْكُرُ قَوْلَكَ يَوْمَ كَذَا إِذْ مَرَّ بِكَ طَارِقٌ فِي مَوْكِبِهِ؟ فَقَالَ: يَا بَنِيَّ إِنَّهُمْ يَجِدُونَ مِثْلَ أَبِيكَ وَلَا يَجِدُ أَبُوكَ
مِثْلَهُمْ. إِنَّ أَبَاكَ أَكَلَ مِنْ خَلَاوَتِهِمْ، فَحُطَّ^(٦) فِي أَهْوَانِهِمْ.

أَمَا تَرَى هَذَا الدَّيْنَ الْفَاضِلَ كَيْفَ عُوِّجَ بِالتَّقْرِيعِ وَقُوِّبَ بِالتَّوْبِيخِ مِنْ أَحْصَى ذَوِيهِ، وَلَعَلَّهُ مِنْ أَبْرَ
بَنِيهِ. فَكَيْفَ بِنَا وَنَحْنُ أَطْلُقُ مِنْهُ عَنَانًا، وَأَفْلُقُ مِنْهُ جَنَانًا. إِذَا رَمَقْنَا أَعْيُنَ الْمُتَسَبِّعِينَ، وَتَنَاوَلْنَا أَلْسُنَ
الْمُتَعَتِّبِينَ. هَلْ نَجِدُ غَيْرَ تَوْفِيقِ اللَّهِ تَعَالَى مَلَاذًا، وَسِوَى عِصْمَتِهِ مَعَادًا؟



- (١) نسبت هذه الأبيات للإمام الشافعي، وهي في ديوانه ٤٦، وقيل: هي لأبي الأسود الدؤلي، وقيل: للأخطل.
- (٢) أبو فَرَوَةَ: هو عدي بن عدي الجزري الكندي التابعي، قال البخاري: هو سيد أهل الجزيرة. وكان عامل عمر بن عبد العزيز على الجزيرة والموصل. توفي سنة عشرين ومائة.
- (٣) خالد بن عبد الله بن يزيد القسري الجعلي، كان من أمراء الدولة الأموية، وأخا هشام من الرضاة، ولاء هشام العراق بعد عمر بن هبيرة، وكان خالد جوادًا عظيم الهمة، وله أخبار ومكابد. توفي بالشام سنة ست وعشرين ومائة.
- (٤) هو عبد الله بن شبرمة الكوفي القاضي، فقيه أهل الكوفة، وكان راوية شاعرًا خطيبًا ناسبًا، حاضر الجواب، وكان يشبه بعامر الشعبي، والبيت الذي تمثل به لعمران بن حطان.
- (٥) معني تقشع: تنكشف وتضمحل.
- (٦) حُطَّ في أهوانهم: أي سقط فيما سقطوا فيه، وقد ذكرت في طبعة بولاق، «فخبط» وماذكرته من منهاج البقين، وهو الصواب.